

التمثلات الاجتماعية للرجولة والأنوثة بالمجتمع القروي المغربي منطقة الرحامنة نموذجا

د. محمد عبد ربي*

ملخص المقال

من منطلق المساهمة في تطوير وإغناء النقاش العلمي المتعلق بمدى استمرار الأنماط الحياتية والقيم التقليدية المؤطرة للهويتين الذكورية والأنثوية، و بالاعتماد على دراسة ميدانية شملت عينة من سكان الوسط القروي بمنطقة الرحامنة بالمجتمع المغربي، عمدنا في هذا المقال إلى تحليل التمثلات الاجتماعية لمفهومي الرجولة والأنوثة داخل المجتمع المغربي عاملين من جهة أولى على تحديد دلالة هذين المفهومين على المستويين الاجتماعي والاقتصادي، أي على المستويين الرمزي والمادي، ومن جهة ثانية حاولنا إبراز العناصر التي يشكل وجودها قيمة إيجابية يقوي الرجولة أو الأنوثة ويضفي صبغة مثالية عليهما، وتلك التي يعد وجودها قيمة سلبية يترتب عنها فقدان الرجولة أو الأنوثة داخل المجتمع المدروس. كما تسعى هذه المساهمة على مستوى آخر إلى تبيان كيفية تجسد الرجولة والأنوثة على مستوى الواقع الاجتماعي، من خلال تشخيص وتحليل السلوكات التي يقوم بها الأفراد والمجموعات الاجتماعية خلال تفاعلهم مع بعضهم البعض بمختلف الفضاءات الاجتماعية سواء كانت خاصة أو عامة. وقد توصلنا في هذه الدراسة إلى أنه برغم بعض التغيرات التي بدأ يشهدها المجتمع القروي المغربي، فإن قيم الرجولة والأنوثة ما تزال تحافظ في وقتنا الحالي على انسجام نسبي في مكوناتها وعناصرها التعريفية أو التمييزية، مما يضمن الثبات النسبي الذي يطبع علاقة الرجال بالنساء، وهي علاقة مطبوعة بهيمنة صارخة للرجال على النساء، كما يتجلى ذلك بشكل واضح على مستوى الفضاء العام، حيث الإقصاء التام للنساء من المجالات الحيوية للإنتاج والتبادل وأيضا على المستوى الرمزي، حيث استمرار خطاب ذكوري مفرط في تبجيل مكانة وأدوار الرجال وفي شرعنة هيمنتهم على النساء.

* - أستاذ باحث في علم الاجتماع، كلية الآداب والعلوم الإنسانية- المحمدية. جامعة الحسن الثاني الدار

Résumé :

A partir d'une recherche de terrain réalisée au niveau du milieu rural Marocain, en particulier dans la région du Rhamna, cette contribution propose d'analyser les représentations sociales relatives à la masculinité et à la féminité. Elle permettra de mieux comprendre, à partir d'une analyse des valeurs, des stéréotypes et des perceptions véhiculées par les membres de la société étudiée, comment se tissent d'une part les hiérarchies entre les hommes pour atteindre le statut des hommes dites « virils » ou des « vrais hommes » et d'autre part les relations de pouvoir qui légitiment la domination masculine sur les femmes. Pour ce faire, l'étude a essayé de décrire les comportements des acteurs locaux par rapport aux différents domaines de production et d'échange matériels et symboliques, et les manifestations de la domination masculine notamment au niveau du champ social et du champ économique. Il ressort de cette étude sociologique qu'il y a une continuité remarquable aux niveaux des valeurs et stéréotypes traditionnelles qui régissent les deux identités : masculine et féminine et qui légitiment la domination masculine sur les femmes que se soit au niveau de l'espace public caractérisé par l'exclusion accrue des femmes ou au niveau symbolique marqué par une nette valorisation du statut des hommes et de leur rôle dans la société.

مقدمة

إنّ التغيرات الحالية التي تعرفها المجتمعات العربية على مستوى النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التكنولوجية، من شأنها أن تدفع الباحثين في حقل علم الاجتماع والأنثروبولوجيا إلى التركيز في دراساتهم على مجموعة من القضايا الاجتماعية ذات الارتباط الوثيق بالمعيش اليومي للأفراد و المجموعات البشرية، كما هو الشأن بالنسبة لقضية الهوية الجنسية، أو ما يطلق عليه اصطلاحا بالهوية الرجولية والهوية الأنثوية. لقد أصبح السؤال حول مدى استمرار الأنماط التقليدية المؤطرة للهويتين الذكورية والأنثوية يطرح نفسه اليوم بحدة أكثر على الفاعلين الاجتماعيين. نتيجة لذلك، احتد النقاش حول دلالة الأدوار والسلوكات الخاصة بهذا الجنس أو ذلك. و قد اتجه هذا النقاش المتعلق بإعادة تحديد الهوية الجنسية نحو مساءلة المؤسسات والقوانين والقيم والمعايير المؤطرة للتقسيم الجنسي الموروث عن الأجيال السابقة. كما أنّ هذا النقاش قد دفع ببعض الباحثين (Badinter Elizabeth 1992 : 10-19) في المجتمعات الغربية إلى القول بأنّ الهوية الذكورية قد أصابها تحول كبير خلال نهاية القرن العشرين وأنّ النموذج

القديم للرجولة يتجه نحو الانقراض، ليترك المكان لنموذج آخر مختلف عنه. و بالتالي، " فإن رجل القرن العشرين، أصبح يعيش أزمة هوية. لقد أصبح لا يعرف كيف يتحدد" كما ذهبت إلى ذلك إلزابيث بادينتر (Badinter Elizabeth 1992 : 19).

من منطلق المساهمة في تطوير وإغناء هذا النقاش العلمي، و بالاعتماد على دراسة ميدانية أنجزناها بالوسط القروي بمنطقة الرحامنة بالمجتمع المغربي(عديري محمد، 2002)، سنعمل في هذا المقال على تحليل التمثلات الاجتماعية لمفهوم الرجولة والأنوثة داخل المجتمع المغربي. فماذا يعني مفهوم الرجولة و مفهوم الأنوثة؟ وما هي دلالاتهما في خطاب المجتمع؟ وبالتالي كيف تمارس الرجولة والأنوثة في الواقع اليومي للأفراد والجماعات؟ أو بمعنى آخر، كيف تتحدد الرجولة والأنوثة على المستويين الاجتماعي والاقتصادي، أي على المستويين الرمزي والمادي؟ وما الذي يشكل قيمة إيجابية يقويهما ويضفي صبغة مثالية عليهما؟ وما هي العناصر التي يعد وجودها قيمة سلبية يترتب عنها فقدان الرجولة أو الأنوثة داخل المجتمع المدروس؟

سنحاول الإجابة على هذه التساؤلات من خلال تركيز مضامين هذه المساهمة في محورين رئيسيين، ينصب الأول على تحليل التمثلات الاجتماعية للرجولة، والثاني يتعلق بتحليل التمثلات الاجتماعية للأنوثة. لكن قبل التطرق إلى هذين المحورين، يبدو لنا من المهم جدا إضافة محور آخر للتعريف بالمجال الجغرافي والبشري والتاريخي لمنطقة الدراسة وتبيان المنهجية المعتمدة في هذه الدراسة، إضافة إلى التعريف بالمفاهيم الأساسية المستعملة، وهذا ما سنتطرق له خلال المحور التالي:

أولا. التعريف بالمجال المدروس وبمنهجية الدراسة وبالمفاهيم الأساسية

1. المجال المدروس

يشير بعض المؤرخين إلى أنّ الرحامنة هي " قبيلة عربية كبيرة مستقرة بالسهل الواقع جنوب وادي أم الربيع وشمال مدينة مراكش، وهي تتألف من العشائر التالية: الحشاشدة، اللوثة، سلام، يكتوت، غريب المرابطين، العطاية، البرابيش، الشياضمة، أولاد عقيل، أولاد زعرية، زاوية ابن ساسي، أولاد عبّو، أولاد حصين، أولاد مطاعية، أولاد تميم والسكان، ومن أشهر قراها ومراكزها: ابن جرير، زاوية ابن ساسي، القليعة وبيير المعطي، القلب، سيدي عبد الله، صخور الرحامنة" (بن زيدان مولاي عبد

الرحمان، 1961: 253-254). وحسب التقسيم الإداري للمملكة، فإن إقليم الرحامنة الذي أحدث سنة 2009، ينتمي إلى الجهة الاقتصادية مراكش تانسيفت الحوز. وهو يتكون من مدينة بن جرير، إضافة إلى العديد من الجماعات القروية، المشكلة من بعض المراكز القروية والعديد من الدواوير. ولذلك يغلب على هذا الإقليم الطابع القروي.

من الناحية الطبيعية، فإن منطقة الرحامنة تقع بين نهر أم الربيع الذي يفصلها شمالا عن منطقة الشاوية، ثم وادي تانسيفت الذي يفصلها عن مدينة مراكش وسلسلة الجبيلات وبلاد مسفيوة جنوبا، وتحدها من الناحية الشرقية قبائل السراغنة وزمران ومن الجهة الغربية قبائل دكالة وأحمر. ويغلب على تضاريس المنطقة الطابع الهضابي. كما أن الجفاف يعد السمة المميزة للمنطقة.

أما من حيث الظروف الاجتماعية والاقتصادية، فإن غالبية السكان تمارس نشاطا فلاحيا مزدوجا، يتمثل في زراعة بعلبية تعتمد على الأمطار، وتقوم على إنتاج الحبوب، خاصة القمح والشعير، إضافة إلى غرس بعض الأشجار التي تتناسب وظروف المنطقة كالصبار، والتي تستغل كعلف للماشية خلال سنوات الجفاف، كما أن تسويق فواكه يدر بعض المداخيل النقدية الإضافية للعديد من الأسر ويشغل يدا عاملة مهمة على امتداد شهرين كاملين من صيف كل سنة. كذلك، فإن تربية الماشية تحظى باهتمام السكان، حيث تتوفر المنطقة على ثروة حيوانية مهمة تأتي في مقدمتها الأغنام وتليها الأبقار والإبل والخيول والبيغال بنسب متفاوتة. لكن الملاحظ أن نسبة كبيرة من السكان ما زالت تمارس تربية الماشية بطريقة تقليدية، خاضعة لتقلبات الظروف الطبيعية. لذلك فإنه خلال سنوات الجفاف نجد نسبة هامة منهم يلجؤون إلى الانتجاع أو نصف الترحال إلى سهل الشاوية أو سهل الغرب أو شرق المغرب. ونظرا للجفاف وعوامل أخرى تتمثل في تمدد سنوات الأطفال وهجرة الشباب، فإن تربية الماشية تتجه نحو عصرنة هذا القطاع. إذ بهدف إنتاج اللحم، فقد اتجه العديد من مربيي الماشية إلى أنشطة التسمين في الحضائر والإسطبلات. هذا ما أدى بالعديد من السكان إلى التخصص في تربية كباش عيد الأضحى، وظهور فئة جديدة من مربيي الماشية، ينخرط أعضاؤها ويستفيدون من خدمات المؤسسات الحكومية و من القروض البنكية. يتعامل غالبية أعضاء هذه الفئة بمنطق الحساب ويتوخون تحقيق الربح السريع من خلال العمل على تحسين جودة القطيع والإكثار من عدده والتعامل مع الشركات التجارية الكبرى لتسويق المنتوج، بحيث نجد

بعض كبار مربيي الماشية، الذين قد تصل طاقتهم الإنتاجية إلى ألف رأس غنم في السنة. وبالإضافة إلى الزراعة وتربية المواشي، نلاحظ أن نسبة مهمة من سكان المنطقة يمارسون التجارة، وخاصة تجارة الماشية أو الحبوب، أو التعاطي إلى بعض الخدمات في المراكز القروية أو في المدن القريبة. كما يمارس السكان بعض الأنشطة الحرفية التي بدأت تتراجع في السنوات الأخيرة كصناعة الفخار، والنسيج، والحصير وصناعة القصب. كما لا يفوتنا هنا، أن نشير إلى مصدر آخر للدخل بالنسبة للعديد من الأسر، ويتمثل أساسا في الهجرة إلى المدينة، والتي تمس أساسا الفئة الشابة من السكان.

أما من حيث مورفولوجية السكن، فإن أغلب سكان الدواوير يقطنون بمنازل تقليدية مبنية على أرض الجماعة؛ أو ما يسمى بـ"حُرُوم الدوار". ويؤدي التوسع أو الترامي على هذه الأراضي الجماعية إلى بروز نزاعات مستمرة بين ذوي الحقوق. تعد "الخيمة" (المنزل) الاصطلاح السائد لدى السكان المحليين، وهي تتكون من غرفتين على الأقل، إضافة إلى المطبخ "الكشّينة". يتم بناء المنازل بخليط من الأحجار والطين المحلي، ويتم تسقيف غرفها بالخشب والقصب، بطريقة لا تخلو من جمالية. ويتضمن محل السكن كذلك زرائب وإسطبلات للأغنام والأبقار والخيول والحمير، إضافة إلى مخازن للأعلاف، وأخرى تحت-أرضية للحبوب، تسمى "المطمورة". والملاحظ أن هذه الزرائب والإسطبلات ليست معزولة أو مفصولة عن غرف السكن، وإنما متصلة بها اتصالا وثيقا. وهذا ما يفسر العلاقة الوثيقة التي تربط الفلاح بقطيع الماشية. إلا أن هذا الشكل من البناء ليس وحده المعروف بالدواوير، بل أصبحنا نلاحظ في السنوات الأخيرة تغيرات ملحوظة على مستوى السكن والتجهيزات المنزلية، حيث أصبح السكان يتجهون إلى بناء مساكنهم أو بعض غرف سكنهم بمواد البناء الحديثة وعلى النمط السائد في المدينة. هذا، إضافة إلى أن جل البيوت أصبحت مجهزة ومؤثثة بالأثاث والأجهزة العصرية كتقنيات الغاز وفرن الخبز وجهاز التلفاز والصحن الهوائي وأجهزة التبريد والتصيين.

2. منهجية الدراسة

إن موضوع الدراسة و طبيعة المعطيات التي نبحت عنها دفع بنا إلى استعمال المنهج الكيفي. لذلك عمدنا خلال مرحلة البحث الميداني إلى استعمال المقابلة شبه الموجهة، سواء الفردية منها أو الجماعية. كما استعملنا أيضا تقنية الملاحظة المباشرة والملاحظة بالمشاركة بغرض تدقيق أو فحص بعض القضايا المدروسة. ولقد قمنا بإنجاز مائة وثلاث

عشرة مقابلة شملت النساء والرجال، بحوالي نسبة 50 في المائة لكل منهما، كما شملت كل الفئات العمرية، حيث أجرينا 60 مقابلة مع الشباب و 53 مقابلة مع الراشدين. و قد أجرينا الدراسة الميدانية بالمركز القروي صخور الرحامنة، إضافة إلى 14 دوارا تنتمي كلها إلى 6 جماعات قروية تقع بمنطقة الرحامنة الشمالية. و قد لجأنا في تحليل المعطيات الميدانية المحصل عليها إلى استعمال منهجية التحليل الموضوعاتي (l'analyse thématique) التي هي إحدى أصناف منهجية تحليل المضمون، التي تهتم بتحليل معنى الخطاب. لكن ما يميز التحليل الموضوعاتي هو أنه لا يكتفي بتحليل المحتوى الظاهري للخطاب، ولكن يشتغل أيضا على المحتوى الكامن، أي العناصر الرمزية فيه.

3. مفهوم التمثلات الاجتماعية

يمكننا تعريف التمثلات الاجتماعية بأنها مجموعة منظمة من الأفكار والمعتقدات والمواقف والرموز والصور الحاضرة في الذهن حول موضوع معين. إنها صيرورة لبناء وفهم الواقع المعيش انطلاقا من المعلومات والأخبار التي تزودنا بها البيئة المحيطة بنا. إنها " بمثابة المصفاة التأويلية، أو العدسة الملتقطة للواقع، والتي عبرها يتشكل نسق الإدراكات والمعتقدات والمواقف" كما ذهب إلى ذلك ميشيل موران (Morin Michel 826 : 1984). وبما أن التمثلات تعمل كآليات لتسهيل التكيف والتواصل مع الآخر، أو مع جماعة الانتماء، فإنه يمكننا أن نفهمها كنتاج حياة نفسية، إلا أنه، بما أن الفرد لا يستطيع أن يعيش في عزلة دائمة عن الآخر، بحيث يكون مرتبطا دائما بجماعات متعددة، فإن التمثلات تصبح كنتاج ثقافي يترجم واقعا مؤولا من طرف جماعة أو فئة اجتماعية. وحسب الباحثين أبريك ومرديلات (Abric J.C. et Mardellat R. 1973-74 :146)، فإن التمثلات الاجتماعية لا تمارس سلطتها في ميدان التصور أو الإدراك فحسب، بل أيضا في مجال السلوكيات أو الأفعال الاجتماعية التي يقوم بها كل فرد أو جماعة بشرية. إذ بما أنها تعمل كأشكال للمعرفة وكإطارات للفكر والواقع، فإنها توجه مشاعر الفاعلين وتفكيرهم واختياراتهم وتصرفاتهم. لقد بين سيرج موسكوفيشي (Moscovici Serge 75-78 : 1976) بأن السلوك الصادر عن الفرد يرتبط بالتمثل الذي يكونه عن نفسه، وإذا كان هذا التمثل هو عملية إنشاء للموضوع، فإنه بالدلالة التي يضفيها على الموضوع، فإنه يحدد السلوك. وبالتالي فإنه إذا كان إعدادا للفعل، فهو ليس كذلك بمجرد أنه يوجه السلوك، ولكن بالنظر إلى كونه يعيد نمذجة وإنشاء عناصر المحيط الاجتماعي، حيث يتجسد

السلوك. إنّ التمثلات الاجتماعية تتدخل إذن لإعطاء معنا للسلوك، و إدماجه داخل شبكة من العلاقات التي يرتبط داخلها بموضوعه. وهذا ما يجعل منها حسب سيرج موسكوفيتشي " مجموعات دينامية، تتجلى مهمتها في إنتاج سلوكات وعلاقات بالنسبة للوسط، وإنتاج فعل يغير هذا السلوك أو ذلك، و ليست مهمتها إعادة إنتاج تلك السلوكات أو تلك العلاقات أو ردود أفعال اتجاه حوافز خارجية معطاة" (Moscovici Serge: 1976: 48). هذا هو التعريف الاصطلاحي الذي ننتبناه بخصوص مفهوم التمثلات الاجتماعية وعلاقاته بسلوكات الأفراد أو أفعالهم، فهل يسعفنا هذا المفهوم في استجلاء مفهومي الرجولة والأنوثة بالمجتمع المدروس؟

ثانيا. التمثلات الاجتماعية للرجولة

يبين تحليل التمثلات الاجتماعية بالمجتمع المغربي أنّ الرجولة مفهوم شامل يغطي كل مجالات الحياة الاجتماعية، إذ يظهر لنا أنها لا يمكن أن تكتسب إلا بالقدرة على مجابهة إكراهات ومتطلبات اليوم كما يتجلى ذلك بكل وضوح في المجالين الاجتماعي والاقتصادي. فكيف تتجسد الرجولة إذن داخل هذين المجالين؟

1 - تجسد الرجولة في المجال الاجتماعي

يقتضي الحديث عن الرجولة داخل المجال الاجتماعي، الكشف عن المواصفات الذاتية التي يلزم توفرها في الشخص، والقيم التي ينبغي أن يتشبث بها، والسلوكات التي عليه أن يقوم بها. إنّ الأمر يقتضي النظر إلى الرجولة كعلاقة بالذات وكعلاقة بالآخر. فما هي خصائصها وكيف تتحدد علائقيا؟

1-1 - الخصائص الذاتية للرجولة

بخصوص الخصائص الذاتية للرجولة، يبين لنا تحليل المعطيات الميدانية أن المفروض في الشخص لكي يعد رجلا أن يتمتع بقوة الشخصية، التي يجب أن تتمظهر في قدرته على تحمل المسؤولية وفي شجاعته وشهامته وفي روح المغامرة التي يلزم أن تغمره. إنّ لقوة الشخصية ما يبررها، إذ الرجولة تشير إلى ضرورة توفر القوة الجسدية والقدرة على التغلب على الآخرين. التغلب على الآخرين يقاس أيضا بجرأة الشخص وخطابه أو كلامه الذي ينبغي أن يكون فصيحاً وجمهورياً. كذلك، الرجولة تعني التحدي

وعدم القبول بالفشل أو الهزيمة. وهي تشير أيضا إلى عدم التنازل عن الحقوق الخاصة وتجنب الاعتداء على الآخرين. كما تقتضي أيضا أن يكون المرء ملتزما بمجموع القيم الاجتماعية المحلبة كالرزانة والصدق، والصرافة، والكرم، والصبر والتواضع.

ومن حيث المعاملات الشخصية، يظهر لنا التحليل أنّ الرجولة تقتضي أيضا أن يكون الشخص وفيًا لكلمته وملتزما بقراراته ومؤديا للفرائض والمناسك الدينية كالصلاة وصوم رمضان والزكاة، ومحافظا على الأمانة، ومتبعا للقوانين الوضعية، وأن يدبر شؤونه الخاصة على أحسن ما يرام. الرجولة هي أيضا أن يكتم المرء أسرارته وأن لا يتيح الفرصة للآخرين لمعرفة نواياه، وأن يحسن اختيار أصدقائه، ويتجنب الدخول في نزاعات مع غيره، وأن تكون له القدرة على الدفاع والهجوم، وانتهاز الفرص. تقتضي الرجولة أيضا الالتزام بالمروءة والوفاء بالعهود وأداء الدين والاعتناء بالمظهر من خلال ارتداء اللباس الأنيق.

1-2- الرجولة كعلاقة بالآخر

أ- الرجولة والسيطرة على المرأة أو ضمان عفاف النساء

يبين تحليل خطاب المبحثين أنّ الوصول إلى الرجولة لا يتحدد إلا بنوع من العلاقة النمطية مع المرأة. لذلك فالرجل مطالب في علاقته بالمرأة بحسن التعامل معها وبالإنفاق عليها. لكن بالمقابل، عليه أن يضمن عفافها والسيطرة عليها. في العلاقة بالمرأة، يتم التركيز من جانب الجنسين معا على ضرورة فرض السيطرة من طرف الرجل على المرأة، إلى درجة يصبح معها هذا المظهر بعدا أساسيا من الأبعاد المحددة للهوية الرجولية. لكن لتكتمل هذه السيطرة، على الرجل أن يكون قادرا على إشباع المرأة جنسيا. بالفحولة الجنسية حيث يمكن للرجل أن يكون له شأن عال كما يؤكد ذلك العديد من المبحثين.

لكن الرجولة لا تتوقف عند حدود السيطرة على المرأة -هذه السيطرة التي ينبغي أن تتمثل في إتباع وامتثال المرأة لأوامر الرجل ونواهيها- ولا حتى عند الإشباع الجنسي لها، بل لا بد أيضا من ضمان عفافها وعفاف بناته وكل ما يوجد تحت سلطته من نساء. تتطابق هذه الملاحظة مع ما ذهبت إليه فاطمة المرينسي من أنّ الرجل ليس مسؤولا على إشباع المرأة جنسيا وإرضاء حاجاتها المادية فحسب، ولكنه بصفته ساهرا

على النظام الإسلامي يتحمل أيضا مهمة حراسة النساء اللاتي يعشن معه وإخضاعهن" (المرنيسي فاطمة 1996: 61). لكن يظهر لنا أنّ الرجولة لا تتوقف عند ضمان العفاف الجنسي للنساء، إذ أنّ الرجل المتزوج نفسه ملزم باحترام هذا البند الرجولي. إنّه ملزم بالابتعاد عن الاختلاط الجنسي وتجنب الخيانة الزوجية.

إنّ مسألة ارتباط الاعتبار الرجولي بضمن عفاف النساء اللواتي تتواجدن تحت سلطة الرجل، أصبحت من المسلمات الرئيسية في الدراسات الأنثروبولوجية المنجزة حول دول البحر الأبيض المتوسط، لكن هل تنطبق هذه الظاهرة على مجتمع البحث؟

بالرغم من كون عامل القرابة ما زال يفرض نفسه، إذ أنّ بنات الأقارب يعتبرن أيضا من العناصر التي يتكون منهن عرض العائلة، واللواتي ينبغي ضمان عفافهن الجنسي، فالملاحظ هو أنّ هناك عامل جد محدد يتحكم في القرابة بدورها وهو الرابطة المكانية؛ إذ يتحكم في درجة سيطرة الرجل على قريباته عامل القرب أو البعد من سكنه، أو بالأحرى عامل الإقامة أو العيش المشترك داخل نفس الفضاء. فكلما حصل تقارب في الإقامة كلما تقوت سلطة الرجل على قريباته، لكن كلما ابتعد محل الإقامة، كلما قلت أو اندثرت هذه السيطرة. هكذا تكون سلطة الرجل قوية على النساء اللواتي يقطن معه في نفس المسكن، وتخفض بالتدريج حسب درجة البعد من إقامته. على سبيل المثال، يحدث أن لا تكون لرجل ما أي سلطة على قريباته القاطنات بالمدينة، لكن في حالة زيارتهن له وإقامتهن معه في مسكنه لمدة و لو وجيزة، فإن سلطته تمتد لتشملهن. كذلك فإنّ الأخ قد يكون كامل السيطرة على أخته أو بنت أخيه إذا كانتا تقطنان معه في نفس المسكن، لكن إذا حدث أن استقل هذا الشخص عن سكن والديه وأنشأ له مسكنا خاصا به، فإنّ سيطرته على هاتين القريبتين تكاد تنمحي.

ب- الرجولة والعلاقة بالأبناء وبالأخريين

يبين تحليل خطاب مجتمع البحث، أنّه لا يكفي أن يكون للمرء أبناء ليحظى بالاعتبار الرجولي، ولكن لا بد له من ضمان حسن تربيتهم والحرص على تعليمهم. ليحظى المرء بصفة الرجولة لا بد له من العناية بأولاده وتوفير حاجياتهم وأن يحسن معاملتهم. تتحقق الرجولة أيضا بالسيطرة على الأبناء، المطلوب فيهم بدورهم أن يكونوا

ملتزمين بالقيم الاجتماعية التي تربي عليها جيل آبائهم. إنّ اكتساب الرجولة يتوقف على ضمان السلوك المنضبط لأفراد الأسرة جميعا، سواء كانوا داخل البيت أو خارجه.

وبالنسبة لعلاقة الرجل بالرجال الآخرين، عليه أن يكون جديا، يحسن التعامل معهم، وأن يحترمهم ويتحمل المسؤولية التي يضعونها على عاتقه. على الرجل إذن أن يساهم بدوره في القيام بالأعمال الاجتماعية التي تسخر لفائدة المجموعة الاجتماعية التي ينتمي إليها كالمشاركة في تنظيم حفل جماعي أو إصلاح المسالك الطرقية أو حفر بئر جماعي أو بناء مسجد... الخ. على الشخص أيضا ليكون رجلا "حقيقيا" أن يتزعم الآخرين، ويقودهم وأن يتدخل لتحقيق الصلح بين المتنازعين وأن يقوم بزيارة الأقارب. لكن مقابل ذلك، على الرجل أن يعيش في غنا عن الناس، وأن يكون غير محتاج إليهم ماديا. كما أنّ عليه أن يحظى باعترابهم، الناجم عن صدقه وفاءه لعهوده وجديته والتزامه بمجموع القيم الاجتماعية؛ ذلك أنّ اكتساب الحظوة الاجتماعية يتمثل في إتباع الناس لأرائه واستشاراته. وبخصوص المعوزين والفقراء، فالرجل ليكون كذلك، عليه أن يساعدهم سواء بمنحهم كباش عيد الأضحى، أو التصدق بأكياس الحبوب بعد الانتهاء من جمع المحاصيل الزراعية... الخ. عليه أيضا بالتصدق على الفقراء وإقراض المحتاجين ومواساة المرضى ونصرة المظلومين وقول كلمة الحق.

حسب ما يقتضيه المجال الاجتماعي، فإنّ الرجل "الحقيقي" إذن هو الذي ينتهز كل فرصة لإبراز كل الموصفات الإيجابية في سلوكاته وأفعاله. إنه الشخص الذي يكون ملتزما بمجموع القيم الاجتماعية، منصاعا لها وعاملا على تحقيق مقتضياتها في حياته اليومية. لكن هل هذه الموصفات، هي ما تقتضيه الرجولة في المجال الاقتصادي؟

2- تجسد الرجولة في المجال الاقتصادي

2-1 - المال مقياس الرجولة

بخصوص المجال الاقتصادي، يبين تحليل المعطيات الميدانية أنّ المال يعد مقياسا أساسيا للرجولة، بدونه لا يحظى المرء بالاعتبار الرجولي. على أساس ذلك، فالرجولة تقتضي أن يتوفر الشخص على رأسمال مادي، سواء تمثل هذا الرأسمال في ودائع مالية أو ممتلكات عقارية أو في قطيع مهم من الماشية. تحقق الرجولة يتم أيضا

بامتلاك الضيعات الزراعية المسقية نظرا لإنتاجيتها المضمونة، وامتلاك المسكن اللائق وممارسة الأنشطة الفلاحية المربحة. على الرجل إذن أن يكون فلاحا أو مزارعا ناجحا وأن يتوفر على المال الكافي أو على دخل قار. وإضافة إلى النشاط الفلاحي، فالرجولة تتحقق أيضا بالقيام بأنشطة التجارة والنجاح فيها، والاستفادة من القروض البنكية والقدرة على أداءها.

2-2 - الرجولة وقيم العمل

بمجتمع البحث، يظهر لنا أنه إذا لم يكن بالإمكان توفر الرأسمال المالي الكافي، فإنّ النشاط المهني الذي يمارسه الشخص يكون هو السبيل الأمثل إلى تحقيق الرجولة، لهذا على المرء أن يكون قادرا على أداءه. من هنا الأهمية المعطاة في نظرنا للقيم المرتبطة بالعمل؛ والتي تؤكد على الكد والصبر والانهماك في أداءه بصفة دائمة وكيفما كانت طبيعة العمل. تؤكد قيم العمل على ضرورة التعاطي لكل الأنشطة المهنية مهما اختلفت من حيث القيمة الاجتماعية. تركز قيم العمل أيضا على الرغبة الدائمة في القيام بالعمل والقدرة الفعلية على أداءه وعلى الإلتقان الجيد له.

تحت قيم العمل الشخص على أن يطلبه أينما توفر؛ ومن ثمة تدفعه إلى أن يلجأ إلى أساليب أخرى كالهجرة الداخلية أو السرية إلى الخارج، أو طلب الشراكة من أقاربه بالمدن من أجل إقامة أنشطة فلاحية محليا، وأحيانا عبر النصب والاحتيال والاتجار في المخدرات، كما أصبح يقوم بذلك بعض شباب المراكز القروية في يومنا هذا. ما يبرر هذا التوجه هو أنّ الشخص العاطل يكون موضع سخريّة و احتقار دائم من طرف أفراد المجتمع المحلي، هذا إضافة إلى أنّ الرجولة في الحقل الاقتصادي تختلف عما تقتضيه في الحقل الاجتماعي. الرجولة في الحقل الاقتصادي تقتضي أن يكون المرء من ذوي النفوذ المالي. هذا ما تجسده بوضوح طموحات الإنسان القروي. إذ يتبين أنه إذا كانت طموحات المسنين والكهول تقف عند حدود المحافظة على ما كسبت أيديهم، وأحيانا مضاعفة ذلك بالزيادة في حجم قطيع الماشية أو مساحة العقارات الزراعية المملوكة، فإنّ طموحات الشباب القروي تتجاوز ذلك بكثير. لم يعد الشباب مقتنعا بالطريقة التي يمارس بها النشاط الفلاحي من لدن الآباء، ولكنه يرغب في تطوير الأساليب المستخدمة قصد تحقيق الربح السريع كالاتجاه نحو الزراعة المسقية والفلاحة العصرية. يتجاوز طموح الشباب أحيانا

النشاط الفلاحي ليشمل ممارسة الأنشطة التجارية و الخدماتية المربحة كالمضاربات العقارية وامتلاك المحلات التجارية والمقاهي والشاحنات وسيارات الأجرة والآلات الفلاحية.

2-3- الاستقلال المادي مطلب أساسي لتحقيق الرجولة

حسب تمثلات المبحوثين، فإنه للظفر بصفة الرجولة، لا يكفي المرء أن يكون من النخبة المالية، ولكن لأبد له من معرفة السبل الكفيلة به لمواجهة صروف الدهر. لا بد له من أن يكون عارفاً بكيفية التخطيط لمستقبله واتخاذ الاحتياطات اللازمة لمواجهة كل التقلبات المحتملة. إنَّ المطلوب من وراء ذلك هو توفر الرجل على استقلال مادي، يمكنه من ضمان استقرار أسرته و توفير ما يحتاجه أعضاؤها، ومن ثمة ضمان الاعتبار الاجتماعي الكفيل بإكسابه قيمة الرجولة. كي يحظى الرجل بالاعتبار الاجتماعي ويحتل المكانة المناسبة داخل مجتمع "الرجال الحقيقيين"، عليه أن يكون قادراً على تحمل مسؤولية الإنفاق على البيت، أي على الزوجة والأبناء. هذا الرأسمال المادي هو الذي يمكنه من تحقيق الرجولة.

يتمظهر تحقق الرجولة في الحقل الاقتصادي أساساً عبر الاستقلال المادي عن الوالدين وباقي الناس وأيضاً من خلال التظاهر أمام الآخرين بقدرة المرء على تأمين العيش لأعضاء الأسرة وحسن تدبير المال المكتسب، وأيضاً عبر المصاريف التفاخرية التي تجرى خلال بعض المناسبات الاجتماعية كالحفلات والأسواق التقليدية والمهرجانات الشعبية. لقد فسر بيير بورديو أنّ هذا السلوك يتم من أجل تجنب شراسة وثقل كلام الناس، إذ "نظراً لضرورة العيش مع الآخرين وتحت أنظارهم، فإنّ كل فرد يعاني من قلق حاد يتعلق بأقوال الناس، والتي تتسم بنقلها وشراستها وحميمتها" (Bourdieu 1977: 29). يلجأ الرجل أيضاً إلى المصاريف التفاخرية من أجل ضمان السيادة على الناس والسيطرة عليهم. لكن "إذا كانت السلطة الاجتماعية بعيدة المنال بالنسبة لغالبية الرجال، فإنّ الكل يبذل قصارى جهوده للوصول إليها، ومن ثم يدخلون في منافسة من أجل ذلك" كما أكدت ذلك بعض الدراسات (Falconnet Georges et Lefaucheur 1975: 66).

3- الرجولة صيرورة مستمرة منذ الميلاد حتى الوفاة

3-1- مشمولات الرجولة

حددنا تجليات الرجولة في كل مناحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية، لكن هل يمكن للمرء أن يخلد إلى الراحة والطمأنينة بعد تحقيق هذه الصفات وتجسيدها أم عليه اتخاذ الحذر خلال كل مراحل حياته؟ بمعنى آخر، متى تبتدئ الرجولة ومتى تنتهي؟ هل ترتبط بسن معين؟ هل يكفي إبرازها في مناسبات معينة ليتسنى للمرء أن يحظى بصفة الرجولة؟

إنّ الرجولة ليست نموذجاً واحداً وموحداً، كما أنها ليست قناعاً جاهزاً يمكن لأيّ كان أن يرتديه متى أراد. ولكن كما نفهم من خلال خطاب المبحوثين، فالرجولة أنواع عديدة. إنها اختلاف وتفاوت في الدرجات. إنها بالأحرى إحساس بكيونونة، لكن هذا الإحساس ليس حالة ثابتة ومكتملة، ولكنه صيرورة خاضعة على الدوام لتغيرات من المد والجزر. قد يبتدئ الإحساس بالرجولة عندما يعي الإنسان واجباته وحقوقه اتجاه نفسه واتجاه الآخرين. وقد يتوطد هذا الإحساس بفعل الزواج، وتكوين أسرة. كما أنّ هذا الإحساس قد يتمظهر في مناسبات معينة وخلال طقوس اجتماعية محددة. كذلك، قد يتقوى الإحساس باكتساب الرجولة لما يصل الإنسان إلى سن معين، وإلى امتلاك ثروة محددة وعند التزامه بالقيم الاجتماعية للمجموعة الاجتماعية التي ينتمي إليها. كما قد يتقوى الإحساس بالرجولة بعد إنجاب الذرية وتزويج الأبناء والبنات. لكن الملاحظ أنّ كل هذه الصفات غير كافية لاكتساب صفة الرجولة في صيغتها المثالية، كما يتضح من خلال تحليل تمثلات مجتمع البحث.

الرجولة إذن ليست مسألة تصريح خطابي أو تمظهر مناسباتي مؤقت، كما أنها ليست انتهازاً لفرصة مرتقبة أو سانحة. ولكنها هذا وذاك، إنها ديمومة أبدية. إنها كما قال بويرديو "إكراه اجتماعي ثابت يرغم الرجال على التعبير بدون انقطاع عن رجولة لا يمكنهم أبداً أن يطمئنوا عليها. إنّ حياة كل رجل توجد تحت المزايدة الدائمة. وحده امتلاك هذه الخاصية الأسطورية هو الذي يمكن الرجال من التوافق مع النماذج المقترحة عليهم، والتي تجعل منهم وحدهم رجالاً حقيقيين" (Bourdieu Pierre 1977 :65).

الرجولة إذن صيرورة مستمرة من الميلاد إلى الوفاة؛ إنها معركة حياة بكاملها. هذا ما تقتضيه الحياة الاجتماعية والاقتصادية؛ فالرجل ينبغي أن يكون دائما هو نفسه، لا يتبدل ولا يتغير أبدا. ومع ذلك، فهذه مجرد علامات تدل على الرجولة؛ إذ مهما حاول المرء التطابق مع هذا النموذج المثالي، فإنه لا توجد أي ضمانات على أنه ظفر به وأدرك الوصول إليه في الحياة الخاصة أو العامة. هذا ما يبيّنه تحليل تمثيلات أفراد مجتمع البحث؛ لقد أفرت هذه التمثيلات أنّ الحسم في أمر الوصول إلى الرجولة لا يتم إلا بعد موت المرء وفناء جسده وبعث روحه وتحقق رضا الله عنه في الحياة الأخرى. من هنا نستنتج أيضا أنّ الرجولة صيرورة لا بداية ولا نهاية لها. إنها كينونة لا يمكن تحققها في كل أبعادها الرمزية والمادية.

3-2- نقائص الرجولة:

يبين لنا تحليل المعطيات الميدانية أنّ الرجولة لا تتحدد دائما بطريقة إيجابية ولكن أيضا بطريقة سلبية. ليتم اكتسابها، لابد من تجنب الوقوع في بعض النقائص أو السلوكات السلبية، التي قد تضيع على المرء فرصة التمتع بالاعتبار الرجولي. هكذا لا يبدو محببا في الرجل أن يكون كثير الشجار مع الآخرين، وأن يضيع أمواله ووقته فيما لا يجديه نفعاً، وأن يكون كثير الاختلاط بالآخرين، وخاصة بالنساء والتدخل في شؤونهم الخاصة. تسقط الرجولة عن المرء الذي يكثر الاختلاط مع الأشخاص الذين لا ينتمون إلى جيله. كما تسقط الرجولة أيضا عن الشخص الذي يكون خانعا وراضيا بالذل والإهانة، ومن يكون طماعا ونماما، ويشهد بالزور ويتعاطى القمار والمخدرات وشرب الخمر وخيانة زوجته والاعتداء على الآخرين والتعاطي للسرقة وأكل أموال الناس بال نصب والاحتيال وقول الكلام القبيح وكثرة الامتنان. هذه الصفات السلبية من شأنها أن تسقط الرجولة عن المتصف بها وتجعل الناس يطلقون عليه بعض الشتائم أو التسميات التحقيرية.

نخلص إذن إلى القول بأنّه في غياب التوافق مع القيم الإيجابية والتعارض مع القيم السلبية، فإنّ المرء يعرض نفسه لأقصى حالات الإهانة والتبخيس. ومن ثم يكون عرضة للتهميش والإقصاء الاجتماعيين، كما أكد ذلك سيرج موسكوفيشي حينما قال: "إنّ عدم التوافق والهامشية تعرض الأفراد إلى أقسى محن الشتائم والنبذ، أو حتى إلى الاضطهاد"

(Moscovici Serge 1979: 207). هكذا، يصبح الشخص الذي لا تتجسد فيه الرجولة بالموصفات الإيجابية الأنفة الذكر، عرضة للإهانة والإذلال من طرف الجميع وموضوع سخريتهم التي قد تطول حتى اسمه، بحيث إنّ الناس يصبحون لا ينادونه باسمه كما هو ولكن يقومون بتصغيره. فإذا كان اسمه مثلا أحمد، فإنهم ينادونه أحميدة... الخ.

من الشتائم الكبرى التي يتجنب المرء أن تُلحق به بمجتمع البحث، نجد النعوت التالية:

- امرئوة: وهو تصغير لاسم المرأة. يطلق هذا النعت أساسا، الذي يصيب المرء في جوهر رجولته، على كل شخص لا يستطيع ممارسة السلطة على زوجته وبناته أو أخواته وكل من يوجد تحت سيطرته داخل البيت من نساء. ويطلق على الذكر الذي لا يستطيع اتخاذ أي قرار داخل البيت أو خارجه. كما يطلق أيضا على الرجل الذي يكون خاضعا لأوامر زوجته وواقعا لظروف معينة تحت سلطتها، إما بفعل صغر سنه، أو بفعل غناها هي وفقره هو. وقد يطلق أيضا على الشخص الذي لم يستطع فض بكاره زوجته ليلة الدخلة. هذه الموصفات من شأنها أن تنزع صفة الرجولة عن الذكر وتجعله لا يحظى بالاعتبار الرجولي.

- الننيوآ، الذي هو تصغير للفظ الأنثى، وهو يرادف لفظ اللوطي (الزامل) والخنثوي (الخنثى): تطلق هذه الشتائم على الشخص الذي يمارس الجنس مع رجل آخر، لكن يكون هو المفعول به جنسيا. حسب خطاب المبحوثين، فإن صورة هذا الشخص، ترتسم على الشكل التالي: هيئة جسدية مؤنثة، تشبه في ملامحها هيئة المرأة. صوته رقيق كصوت المرأة، حركاته وتصرفاته نسوية. يمشي مشية النساء ويتكلم بطريقتهن. يتعطر بعطور المرأة وقد يستعمل أحيانا بعض الدهون ويزين عينيه وحاجبيه وشفتيه، ويكثر من استعمال الحلي كالأقراط و"سلسلة" العنق، ويطيل شعر رأسه. كما أنه يكون كثير الحديث عن المشاكل العاطفية وشديد العناية بمظهره، كما أنه يلبس لباسا كاشفا ويعري أطرافه كثيرا ويكثر من استبدال لباسه خلال اليوم الواحد ويكون كثير الاختلاط بالنساء* (ELHARRAS Mokhtar 1996 : 46). وقد يصل الأمر أحيانا إلى الاعتقاد بأن أعضاءه

*- لقد أوضح الهراس المختار أن الرجل بمنطقة أنجرة لكي يحافظ على هويته الاجتماعية الذكورية عليه أن لا يبيكي، ولا يقلد النساء في طريقة كلامهم وحركاتهم وملابسهم وسلوكهم بصفة عامة، وأن لا يقضي أغلب وقته في القيام بأنشطة صغيرة داخل البيت أو في الحديقة المجاورة له.

الجنسية شبيهة التكوين بأعضاء المرأة الجنسية وأنّ عضوه الجنسي غير قادر على الانتصاب.

- الفَنيان: هذا المصطلح ترجمة للفظ الفرنسي (le fenian)، وهو يعني الشخص المتكاسل والمتراخي، الذي لا يحب العمل ولا يقدر على أداءه. وإذا أسند إليه عمل ما، فإنه يتماطل في أداءه. مثل هذا الشخص يفقد صفة الرجولة، ومن ثم لا ترغب أي امرأة بالزواج به، حسب خطاب المبحوثين.

- القواد: أي الوسيط الجنسي، و هو الشخص الذي يشتغل كعميل جنسي، يسهل ربط علاقة ما بين رجل وامرأة قصد تسهيل ممارسة الجنس خارج مؤسسة الزواج مقابل حصوله على مبلغ نقدي أو خدمة معينة. حسب التمثلات الاجتماعية السائدة، فإنّ هذا الشخص يتصف بكثرة اختلاطه بالرجال والنساء على اختلاف أجيالهم ومستوياتهم الاجتماعية والخوض في الأحاديث معهم، واتصافه بالنعيمية والنفاق وعدم الالتزام بالوعد.

استطعنا إذن، الكشف عن المحددات المادية والرمزية للرجولة وتجسيداتهما في المجالين الاجتماعي والاقتصادي. وتوصلنا إلى معرفة ما يشكل قيمة إيجابية تقويها وتضفي صبغة مثالية عليها. توصلنا أيضا إلى تحديد العناصر التي يعد وجودها قيمة سلبية يترتب عنها فقدان الرجولة، فهل يمكن أن يتأتى لنا نفس الأمر للكشف عن مفهوم الأنوثة؟ كيف تبرز الأنوثة إذن داخل خطاب مجتمع البحث؟

ثالثا. التمثلات الاجتماعية للأنوثة

1- النموذج المثالي للأنوثة

لا تتحقق الذات البشرية فقط بالتطابق مع ما يمثّلها، ولكن المغايرة هي شرط تجلي الذات وتحققها. وكما أنّ الرجولة هي مرآة الأنوثة، فإنّ الأنوثة هي مرآة الرجولة. وبما أنّ تعريف الشيء بضده لا يخرج عن مبدأ الهوية، فإنّ الآخر هو الذي يعطي للذات معنى وجودها. هكذا، وليكتمل لدينا تعريف الرجولة، فإنّه يلزمنا تحليل تمثل المجتمع للأنوثة؟ فكيف يرتسم هذا المفهوم حسب خطاب المجتمع المدروس؟

بغض النظر عن ذكر الخصائص المتعلقة بالطبع، والتمثلة في الوداعة والطيوبة والرفقة، وبغض النظر عن الخصائص الجسدية، فإنّ الأنوثة تتحدد، بالدرجة

الأولى، كانضباط لمجموعة من القيم الاجتماعية المحلية، التي تضبط حركية المرأة وسلوكها، سواء في علاقتها بالذات أو بالآخر.

بخصوص الموصفات الذاتية للمرأة، فالمطلوب منها هو أن تكون رزينة وقنوعة وصبورة ومتسامحة. عليها أن تبدي في سلوكها قيم الحشمة والخجل والوقار والاحترام. عليها أيضا أن تكون جدية ووفية وكريمة، وأن تسير على نهج والديها، وأن تضمن تلاحم المجموعة الاجتماعية التي تنتمي إليها.

وبخصوص العلاقة التي تربط المرأة بالآخرين، أي بالرجال وباقي النساء، فإننا نلاحظ أنّ كل التوجيهات تصب في اتجاه قولبة المرأة وتكييف سلوكها حسب مطالب الزوج، إلى درجة تجعلنا نستخلص أنّ المرأة تتحدد بزوجها أكثر ما تتحدد بأي شخص آخر. هكذا، فالمطلوب منها في علاقتها بالزوج أن تكون مخلصه له عاطفيا وجنسيا وأن تكون مطيعة له ومتفاهمة معه ومتشاوره معه في كل أمر تريد قضاءه، عليها أن تتعاون معه وتساعدته. من هنا يجب عليها عدم الخروج من البيت أو زيارة الأماكن التي لا يرغب فيها الزوج دون إذنه. كما يلزمها عدم التدخل في شؤونه الخاصة مع ضرورة عملها على الإغلاء من شأنه وخدمته وتوفير العناية اللازمة به. المرأة ملزمة أيضا بعدم إقتال كاهل الزوج بالمطالب الاستهلاكية التي لا يستطيع تلبيتها. وبما أنّ زوجها ليس فردا منعزلا عن الآخرين، وإنما له أبناء وأسرة، فإنّ المرأة مطالبة بخدمة الأبناء وجميع أعضاء أسرة الزوج وعدم الشجار مع والديه أو أقاربه. وفي حالة وفاة زوجها، إضافة إلى ضرورة تحصنها وعفافها، فإنها ملزمة برعاية أبنائه وخدمتهم حتى يكبروا.

في علاقة المرأة بالآخرين، فإنها مطالبة بحسن التعامل مع النساء، بمساعدتهن إقراضهن المال إن اقتضى الحال. لكنها ملزمة بعدم البوح بالكلام القبيح والنميمة أمامهن. وفي علاقتها بالرجال الآخرين، فهي مطالبة بعدم الحديث معهم أو الاجتماع بهم وبعدم الظهور أمامهم، بل نجدها أحيانا مطالبة بعدم الخروج من البيت وبعدم التدخل في شؤون الغير، وبعدم فسخ المجال للآخرين كي يتدخلوا في شؤونها الأسرية والخاصة. ذلك أنّ المرأة التي يتداول الجميع أخبارها وأسرارها تتحط قيمتها الاجتماعية.

إضافة إلى هذه الموصفات، فإنّ نموذج المرأة المثالي لا يتحقق إلا بمهارة المرأة و قدرتها على أداء المهام المنوطة بها داخل البيت؛ إذ عليها أن تكون بارعة في

إعداد الأطعمة وصيانة البيت وتدبير أموره الداخلية وحسن تربية الأبناء والعناية بهم والاستجابة لمطالبهم. لكن، يظهر أنّ الصورة الحقيقية لهذا النموذج المثالي للأنثوة لا تكتمل ولا ترتسم جيدا إلا إذا قمنا باستخراج السلوكات أو المواصفات التي يرفض المجتمع رؤيتها في المرأة. فما هي هذه السلوكات وما هي دلالتها؟

2- نقائص الأنثوة

إنّ الممارسات السلوكية المنافية للقيم الاجتماعية التي يحرص المجتمع على أن لا تقوم المرأة بها متعددة ومتنوعة، لكنها تتفاوت من حيث الأهمية أو الخطورة. النوع الأول من الممارسات التي تعاب على المرأة، لكن لا تؤدي بها إلى النبذ الاجتماعي، وإنما تقلل من مكانتها الاجتماعية، سواء داخل مجموعة النساء أو داخل المجتمع بكامله، تتمثل في عدم إتقان المرأة إعداد الأطعمة وعدم قيامها بأشغال البيت، وكثرة الخصومات مع الجيران ومع أسرة الزوج وباقي الناس، وعدم الاعتناء بطهارة جسدها وملابسها، وسوء تدبير الموارد الأسرية بفعل سرقتها من مال الزوج أو بضائع البيت من أجل مساعدة والديها أو إخوانها أو صديقاتها، والاتصاف بالنميمة والكذب، وأخيرا اتصافها بالتكبر والتعالي وعدم الجدية.

مقابل ذلك، فإنّ النوع الثاني من الممارسات، الذي يعد شاذا وقد يؤدي بالمرأة إلى النبذ الاجتماعي، يشمل الخيانة الزوجية وممارسة السحر. فكل المبحوثين، مهما اختلفت أعمارهم واختلف جنسهم، فإنهم يجمعون على خطورة هاتين الممارستين، ويجعلانهما لازمتين للمرأة. إنّ أشد ما يخافه المجتمع والرجال على وجه الخصوص هو تعاطي المرأة لهذا النوع من الممارسات. ويتم الاعتقاد أنّ المرأة، سواء كانت عازبة أو متزوجة أو مطلقة أو أرملة، فإنه لا وجود لأي ضمانة على عدم ممارستها للجنس خارج إطار مؤسسة الزواج. المرأة متهمة أصلا بهذا الصنيع؛ بالخيانة الزوجية وبممارستها للجنس بدون هوادة. كما أنها متهمة بالتعاطي للسحر والشعوذة. إذ يرى المبحوثون أنّ المرأة بدافع الرغبة في السيطرة على الزوج، وبدافع الغيرة والحسد والمنافسة مع النساء الأخريات حول اكتساب الجاه والمال والاعتبار الاجتماعي، فإنها تتعاطى السحر. هذا التمثل يتطابق مع "الاعتقاد الراسخ في المجتمع المغربي بأنّ السحر سلاح أساسي من أسلحة المرأة، تلجأ إليه إما للتأثير على قرارات الزوج؛ إذا ما انعدمت لديها قوة ضغط

أخرى تمكن من تحقيق رغباتها، أو لضمان وفاءه، أو بقصد تفكيك أسرة أخرى" كما أكدت ذلك دراسة المختار الهراس وإدريس بن سعيد (الهراس المختار وينسعيد إدريس 1996: 124). من هنا يفرض المجتمع على المرأة تجنب التعاطي لهذه الممارسات، التي تؤدي إلى فقدانها مكانتها الاجتماعية. معنى هذا أن المرأة التي تقوم بالسحر والخيانة الزوجية تفقد كل اعتبار اجتماعي. لكن لماذا يجعل المجتمع هاتين الممارستين، أي الخيانة الزوجية والسحر ضمن أولى قائمة السلوكيات التي تحضر على المرأة؟ ألا يرجع ذلك إلى كون اعتبارهما سلطة مضادة تقاوم بهما المرأة سلطة الرجل وتطيح بها؟

تؤكد لنا الملاحظة المباشرة لأفراد المجتمع المدروس أن الرجل الذي تقوم زوجته أو إحدى النساء الواقعات تحت سلطته لهذه الممارسات يفقد كل اعتبار اجتماعي. إنه يعتبر دون قيمة اجتماعية ويعد خاضعا لسلطة النساء. ولعل هذا الخوف من فقد الاعتبار الرجولي هو ما يدفع المجتمع إلى الحرص الشديد على عدم إتاحة الفرصة لقيام النساء بكل الممارسات التي لها علاقة بالجنس أو بالسحر.

على أساس ذلك، واعتقادا بالإيحاءات الجنسية لبعض السلوكيات، فإنه يحضر على المرأة بالفضاءات العامة بمجتمع البحث القيام ببعض الأمور من مثل ارتداء الملابس الكاشفة التي تظهر الجسد وتبرز محاسنه، والإفراط في التجميل وإظهار الزينة للآخرين كتعريفة شعر الرأس، وخروج المرأة من البيت بدون إذن الزوج، وكثرة وقوفها أمام باب البيت أو الترقب من النوافذ، ومحاولة السيطرة على الزوج، والحديث مع رجال آخرين، والكلام الطائش أو الخليع أمام الآخرين والضحك بصوت عال أمام الرجال أو معهم، والرقص في الحفلات أمام الرجال، والظهور أمام الضيوف الغرباء من الرجال وعدم الاحتجاب عنهم، والبوح بأسرار الزوج وإفشاءها إلى الآخرين*، عدم طاعة الزوج وعدم التفاهم معه وانفرادها باتخاذ القرار، أو الإجهاض والتدخين وشرب الخمر.

هذه إذن مجموعة من المواصفات السلوكية السلبية، التي تعد نقائص، يؤدي القيام بها إلى فقد المرأة مكانتها داخل المجتمع المحلي. وتجعلها منبوذة مع زوج منبوذ

* - لقد بينت بعض الدراسات أن النساء يمكن أن يمارسن ضغطا على أزواجهن بإفشاء الأسرار الأسرية الحميمة. أنظر:

Schaefer Susan Davis(1996 : 189): «Un potentiel limité. Etat, Femmes maghrébines et développement », In : Rahma Bourqia, Charrad M., et Gallagher N. (sous dir.) : op. cit

أيضا بفعل صنيع زوجته. قيام المرأة ببعض هذه السلوكات يؤول مباشرة بأنه رغبة أو علامة على رغبتها في خيانتها للزوج ومؤشر على عدم حفاظها على شرفها وعلى عدم صيانتها للعرض العائلي.

خاتمة

لقد تبين لنا من خلال تحليل التمثلات الاجتماعية، وخلافا لما ذهب إليه بعض الباحثين من كون الهوية الذكورية تعرف أزمة تعريفية في المجتمعات الغربية الصناعية، أنّ الهوية الجنسية بالمجتمع القروي المغربي، برغم بعض التغيرات التي بدأت تطرأ عليها، ما تزال تحافظ على انسجام نسبي في مكوناتها وعناصرها التعريفية أو التمييزية. هذا ما يظهر بجلاء بخصوص الرجولة التي تعد في المجال الاجتماعي سلطة اجتماعية أو أخلاقية تمارس ضغطا قويا على الرجال أنفسهم للدفع بهم نحو التكيف مع مقتضياتها وإكراهاتها. وفي المجال الاقتصادي، فإنّ الرجولة تقتضي من المرء أن يكون من ذوي النفوذ المالي؛ أي أن يكون من أولئك الذين يمكنهم أن يعيشوا في استقلال مادي تام عن الآخرين، وهو الأمر الذي بإمكانه تحقيق المبدأ الظاهر للرجولة وهو السيادة على الطبيعة والبشر والسيطرة عليهم. والرجولة باعتبارها واجب كينونة، فإنها لا تتحدد دائما بطريقة إيجابية، وإنما هناك مجموعة من النقائص التي تفقد المرء كل اعتبار رجولي، ومن ثم يلزم الابتعاد عنها. من هنا التفتين الصارم لسلوك الرجال والتحديد الدقيق لعلاقتهم بالمرأة وبالرجال الآخرين.

وبما أنّ الرجولة تتحدد في جانب كبير منها بالعلاقة مع المرأة، فإنّ المجتمع الذكوري حدد نموذجا مثاليا للأنوثة، تصبح المرأة بموجبه العنصر المساهم بفعالية في إقامة وبناء صرح الهيمنة الرجولية أو الإطاحة به وتهديده. من هنا تشديد المجتمع السيطرة على المرأة وتمتين الرقابة على سلوكاتها، وهو ما يظهر بوضوح في درجة احتكاكها بمختلف الفضاءات الاجتماعية وتهميش دورها داخل البعض منها وعدم إعطاء القيمة اللازمة للأنشطة التي تقوم بها داخل البعض الآخر منها. هذا المعطى يؤدي بنا إلى الاستنتاج بأنّ الأمر لا يتعلق بجهل أو بسوء تقييم لدور المرأة. ولكنه يتعلق بإرادة مجتمعية حقيقية، مغلفة بمجموعة من التبريرات الرمزية، للسيطرة عليها. ومن ثم دفعها للعمل، عن وعي أو عن غير وعي، على إعادة إنتاج الهيمنة الرجولية. إعادة الإنتاج

هاته، هي ما يساهم في استمرار الأنماط التقليدية المؤطرة للهويتين الذكورية والأنثوية، مما يضمن الثبات النسبي الذي تتمتعان به داخل الوسط القروي بالمجتمع المغربي برغم اختلاف الأجيال والعصور والظروف الاجتماعية.

البيبلوغرافيا

- بن زيدان مولاي عبد الرحمان (1961): العز والصولة في معالم نظم الدولة، الجزء الأول

- عبدربي محمد (2002): آليات إعادة إنتاج الهيمنة الرجولية بالمجتمع القروي المغربي، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في علم الاجتماع، تحت إشراف الأستاذة رحمة بورقية. جامعة محمد الخامس الرباط - أكادال.

- المرنيسي فاطمة (1996): الجنس كهندسة اجتماعية بين النص والواقع. ترجمة أزرويل فاطمة الزهراء. الطبعة الثانية، نشر الفنك.

- الهراس المختار وبنسعيد إدريس (1996): الثقافة والخصوبة: دراسة في السلوك الإنجابي بالمغرب. دار الطليعة بيروت.

- ABRIC (J.c) et MARDELLAT (R) (1973-74) : Etude experimentale des représentations dans une situation conflictuelle, in : Bulletin de psychologie. Tome : .XXVII , N°309, Paris

- BADINTER Elizabeth (1992): XY, de l'identité masculine. Editions Odile Jacob.

- BOURDIEU Pierre (1977): Esquisse d'une théorie de la pratique. Editions PUF.

- ELHARRAS Mokhtar (1996): « Féminité et masculinité dans la société rurale Marocaine. Le cas d'Anjra. In : Bourqia Rahma, Charrad (M) et Gallagher (N), (sous dir.) : Femmes cultures et société au Maghreb. Volume I, culture, femmes et familles. Volume II : Femme, pouvoir et développement. Editions, Afrique Orient.

- FALCONNET Georges et LEFAUCHEUR Nadine (1975): La fabrication des mâles. Editions Seuil.

- MORIN Michel (1984): Représentations sociales et évaluation des cadres de vie urbains", in : Bulletin de psychologie, Tome XXXII, N°366. Juillet- Août.

- MOSCOVICI Serge (1976): La psychanalyse. Son image et son public. 2eme editions. Editions PUF.

- MOSCOVICI Serge (1979): Psychologie des minorités actives. Editions P.U.F.

- SCHAEFER Susan Davis (1996): «Un potentiel limité. Etat, Femmes maghrébines et développement », In : Bourqia Rahma, Charrad (M), et Gallagher (N) (sous dir.) : Femmes, cultures et société au Maghreb. Volume I, culture, femmes et famille.

Volume II : Femme, pouvoir et développement. Editions Afrique Orient.